مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
Journal Vol 08, N° 01, March 2020, Version N°29, pp 89-106

تاريخ الإرسال (2018/12/17) تاريخ قبول النشر (2020/02/14)

الرؤى النقدية الرافضة للإستشراق

بوزقاو مريم
جامعة سيدي بلعباس.الجزائر

ملخص:

مثّل الاستشراق تيارا فكريا في الدراسات المختلفة عن بلاد الشرق والبحث عن علومه وعقائده وآدابه وثقافته فأسهم في صياغة التطورات الغربية، على العالم العربي الإسلامي واحتل حيزا مهما من تاريخ البشرية ومن الحياة العربية الإسلامية، فقد درس الاستشراق الثقافة العربية، في حدودها الطبيعية حاضرا، ماضيا ومستقبلا. واهتم المستشرقون بدراسة آدابنا العربية ورأوا فيها أمرا حتميا لفهم حياتنا ونشاطنا، وفنونها ويمكن إرجاع هذا الاهتمام إلى أسباب عديدة أولها صلة هذا الأدب بالإسلام، وأثره على الآداب المختلفة فالأدب العربي متصل بالقرآن الكريم.

كلمات مفتاحية:

الاستشراق، التأثير، الثقافة، العرب، الغرب، الشرق، المستشرقون.

Critical Visions Rejecting Orientalism

Abstract:

Orientalism represented an intellectual flux in different studies made about the Oriental countries, and searching for its sciences, beliefs,

literature, and culture, has contributed to western development shaping. The Arab and Islamic world occupied an important part of the history of mankind and the Arab-Islamic life, orientalism has studied Arab culture in its present, past and future natural borders. The orientalists cared of studying our Arabic literature and considered it imperative to understand our life, its activities and arts. This interest can be traced back to several reasons, the first of which is the relationship of this literature to Islam, and its impact on different letters. Arabic literature is related to the Holy Quran .
Keywords:
Orientalism, Influence, culture, Arabs, the West

الاستشراق في رأي الرافضين:

مما لاشك فيه أن الاستشراق كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، بل إنه يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع، ولذا لا يجوز التقليل منه فهو حركة فكرية منظمة جاء لدراسة العالم العربي بعامة والإسلامي بخاصة، ولا غرو من أن له الأثر الأكبر في صياغة التصورات الأوربية عن الإسلام، وتشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام، إلا أن هذه الحركة وجدت نفسها بين الرفض والقبول من طرف علماء وأدباء العرب والمسلمين ذلك "أن الاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا الإسلامي فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل من يشتغل به، بوصفه عدوا لدودا للإسلام والمسلمين"[1]

فالاستشراق ظاهرة فكرية لعبت دورا كبيرا في الفكر والأدب العربيين قديما وحديثا، ثم إن الاستشراق في حد ذاته يحاول بكل ما له من وسائل وقوة وأفكار، أن يفرض مفاهيمه على العالم العربي الإسلامي بأسره، وقد رأينا جميعا أن كثيرا من علمائنا ومفكرينا وأدبائنا قد تعلموا على أيدي كبار علماء الاستشراق فتبعوا أفكارهم ونظرياتهم وفي الجهة المقابلة هناك من رفض أفكارهم ونظرياتهم ومناهجهم.

ولعل جل دراسات المستشرقين تقابل في العالم الإسلامي عموما بالرفض بوصفها صادرة عن أعداء الإسلام، لأن لهذه القضية أبعادا متعددة وجوانب متشعبة من أجل الوصول إلى اتخاذ المواقف الصحيحة، وفي هذا الصدد يقول محمود زقزوق "أنها حركة فكرية هائلة، وما تنتجه يخصنا ويخص عقيدتنا ولغتنا وتاريخنا، وديننا،

إن الأمر أخطر من ذلك بكثير لأنه يتعلق بأعمق أعماقنا وعقيدتنا فكريا وحضاريا، وليس هناك أمامنا سبيل إلا المواجهة وقبول التحدي وإثبات الذات، وإلا فلسنا جديرين بالحياة"[2] فموقفه معاد للاستشراق، وكل ما يصدر عنه ويأتي به، حيث أن ممثلي هذا الموقف ينسبون إلى المستشرقين مصالح وأهداف ونوايا خبيثة مشبوهة معادية للعرب والمسلمين.

وقف على هذه الشاكلة مجموعة من المفكرين المسلمين، موقف الرفض المطلق فلم يقبلوا أي إسهام في الثقافة الإسلامية من أناس لا يدينون بالإسلام وينظر هذا الفريق "إلى الاستشراق على أنه علم أوربي وهو صورة لما توصلت إليه أوربا في معرفة الشرق، وهو يعكس موقف أوربا وعقلية أوربية، إن هذا الاستشراق غير نتاج خارجي كتبه خارجون لا يكاد معظمهم يحسن اللغة التي يتكلم بها فكيف عندما يناقشون ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وتاريخنا وثقافتنا وآدابنا واقتصادنا"[3]

فهذه الموجات الاستشراقية، كان هدفها الهجوم على العقل العربي وعلى القومية العربية، واللغة العربية والعقيدة الإسلامية والتراث... وفي هذا يقول محمد الدعمي عن الفكر الاستشراقي: "يحيل الماضي العربي الإسلامي إلى كينونة ميتة يمكن للذهن الغربي الارتجاع إليها عند الحاجة لاستخلاص الدروس والخبرات لصالح حضارتهم"[4] فقد عبر الموقف الغربي على تاريخنا أنه تاريخ لا مجد له وغير قادر على التوليد والتجديد وهو مجرد آثار وشواهد لا غير.

إذن هي معركة فكرية بين الغرب والعرب، ويجب أن تكون لهذه المعركة أدواتها التي يجب التسلح بها لرد الهجوم ولابد من تغيير موقفنا، وذلك لن يكون إلا بتغير أفكارنا فنحن لسنا متخلفين لقلة ما لدينا من إمكانيات مادية ولكن تخلفنا لقلة أفكارنا وتبديد لجهودنا طبقا لمبدأ النص القرآني قال تعالى: "إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ"[5]

فموقف الرفض من أعمال المستشرقين له مبرراته وأدلته وبراهينه، وكل هذا حسب التعامل مع المعلومات الناتجة عن أولئك الذين لا ينتمون إلى الإسلام، ومن أقوى مبررات الرفض، أن الاستشراق لم ينطلق من قاعدة علمية مجردة

وموضوعية، بل إن هناك دوافع وأهداف علمية ساقت المستشرقين إلى هذا المجال خدمة لأغراض استعمارية وتنصيرية ودينية... وعليه فإن الثقة منزوعة من إسهامات هؤلاء، يقول صلاح الدين المنجد "أثرت في دراساتهم مآرب السياسة، والتعصب للدين فوجهوا الحقائق وفسروها لما يوافق أغراضهم، ولعل هذا الضرب هو الذي جعل المشرقيين العرب يرتابوا من المستشرقين جميعا"[6]

نجد بعض الباحثين يعاتبون من مجدوا وأثنوا على أعمال المستشرقين، ويتعجبون من أمة مثل أمتنا تشكر وتمجد وتعظم أمور سارقي وثائقها، لمجرد أنهم احتفظوا بها أو قدموا إليها صورة منها إلا أن الأمم والدول الحقيقية تفضل حرق وثائقها أفضل من أن تقع في يد أعدائها، وحرق الوثائق التي تدين أهلها يختلف عن حرق المخطوطات التي يفترض فيها أن تخدم البشرية جمعاء، فموضوع الاستشراق من أهم المواضيع الخلافية بين المثقفين العرب والتي تبني علاقاتهم ونظرتهم للغرب على أساسها.[7]

نجد في موضع آخر محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه خلود الإسلام يتحدث عن مناهج المستشرقين "وقد صارت مناهج المستشرقين في البحث والدراسة والثقافة هي الأساس الذي توطد في بنيانها الفكري، وهي التي تأثر بها مشاهير كتابها من أمثال طه حسين، أحمد أمين، زكي مبارك، فتجد أحمد أمين مثلا يكتب ضحى الإسلام وظهره في حين كان الإسلام لابد أن يصل إلى نهايته على يد أحمد أمين وكتبه، وقام كثير من علمائنا، بترجمة كتب المستشرقين بما فيها من أباطيل وبهتان، وتعصب على الإسلام، ومن بينها كتب جولد تسهير، وأصبح علماؤنا يقولون عن مستشرق: "الأستاذ العظيم"، وفي ذلك مظهر للتبعية لا يعلو عليه مظهر"[8].

وقد استدل محمد أركون عن المستشرق "ألان روسيوس" قوله على لسان المنتقدين الرافضين للاستشراق، أن المستشرقين ليسوا مؤهلين للتحدث عن الإسلام فقد اتصفوا بسوء الفهم والتحامل على الشرق عموما وعلى الحضارة الإسلامية خصوصا، وذلك لأنهم بأي معيار لضمان النزاهة العلمية فانحرافهم التاريخي في الحروب الصليبية ضد الإسلام، والوشايات التي يتبعونها عن نية ورفضهم للطبيعة الإلهية للوحي الذي نلقاه[9].

وكل هذا بسبب عجزهم عن رؤية الطابع الإعجازي العلمي في القرآن الكريم، وجهلهم باللغة العربية، ومن الآراء حول الكتابات الاستشراقية ذلك الذي يرى أنها دليل وصايا فكرية ويحذر "من أن الفكر الاستشراقي في معظمه حركة فكرية غريبة مضادة للإسلام والمسلمين، وقد ترك هذا الفكر آثارا سلبية كثيرة على الفكر الإسلامي وهي تظهر واضحة في المجتمعات الإسلامية في أنشطتها المختلفة"[10] فقد حقق الاستشراق نجاحا في التأثير على الحياة الثقافية والفكرية وحتى الاجتماعية في العالم العربي الإسلامي.

ويرى آخرون "أن المستشرقين اتصفوا بسوء الفهم والتحامل على الشرق عموما، وعلى الحضارة الإسلامية خصوصا، فكان منهم سوء العرض والتضليل المقصود لذلك فإن مجال الخطأ كبير في أعمالهم، وغالب الظن أن ذلك يعود لسوء النية وخبث الطوية"[11] ومن هنا كان الوفاق تاما بين الاستشراق والاستعمار فقد ساعد الاستشراق الاستعمار مساعدة فعالة ليبعد أبناء وطنه لسحق الشرق والإسلام.

توالت محاولات المستشرقين للحط من مفهوم الإسلام وإعطاء صورة مشوهة عنه وفي هذا المقام يقول مصطفى السباعي أنه " عبث بتاريخنا أيد خبيثة، ودونته أخرى غير أمينة، ولا يراد من ذلك إلا تشويه حقيقة وتاريخ هذه الأمة، وتشكيكها في قدرتها على تأدية رسالتها... والذي يسهر على تنفيذ وتطبيق مخططاتهم أبناؤنا الذين رباهم المستشرقون ونفثوا السموم في عقولهم حتى أصبحوا أدوات طبيعية في أيادي أسيادهم."[12]

فالناقد يستنكر عمل وأساليب المستشرقين في تزييفهم لحقائق وتاريخ الحضارة الإسلامية إضافة إلى هذا لم يقتصر اهتمام المستشرقين والمستغربين على دراسة التاريخ الإسلامي وتسويته بل تعداه إلى الدراسات الإسلامية من تفسير وحديث، وفقه، وسنة، فحرفوا النصوص حينا وأساؤوا فهمها حين لم يجدوا المجال لتحريفها.

لهذا كله تصدى بعض العلماء المسلمين لمحاولات المستشرقين وفضحوها وكشفوها منهم عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه المسمى "أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها" (التبشر-الاستشراق-الاستعمار) أي أنه هناك تكامل بين الثالوث المدمر الاستعمار الاستشراق والتبشير ويؤكد "على أن المستشرقين كان هدفهم

الأساسي هو دراسة الإسلام والشعوب الإسلامية، لخدمة أغراض التبشير من جهة وخدمة أغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى"[13] فأعدت الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية.

فهو يوضح الصورة الحقيقية للاستشراق بقوله "لا أزعم في هذا السفر أني أحصيت كل أنواع المكر التي مكرتها قوى الأجنحة الثلاثة وخوافيها، ولكنني وبالتأكيد قد نبهت على معظمها، ووجهت الأنظار للاحتراس منها"[14]

فالمستشرقون هم الذين يقومون بالدراسات الاستشراقية ويقدمون دراساتهم ونصائحهم ووصاياهم للمبشرين بغية تحقيق أهداف التبشير أو الدوائر الاستعمارية، فأجنحة المكر عنده ثلاثة، جناح التبشير والمبشرون، جناح الاستشراق، جناح الاستعمار والمستعمرون.

توالت ردود أفعال الكثير من المفكرين العرب والمسلمين الذين يغارون على هذا الدين وأمة القرآن أمثال: أحمد عباس صالح، شكيب أرسلان، وعباس محمود العقاد وغيرهم في الرد على المستشرقين ومن قلدهم من المستغربين في العالم العربي الإسلامي.[15]

وفي دراسة نقدية للمستشرقين، نجد عبد اللطيف الطيباوي يخرج لنا بنتيجتين فيهما دعوة ضمنية لتحديد موقفه الرافض من دراسات المستشرقين المحترفين باستثناء قلة شريفة منهم ما زالوا يصرون على تشويه الإسلام وتزييف حقائقه، والنتيجة الثانية هي أن هناك دلائل تثير القلق، وتشير إلى تزايد العداء والكراهية ضد العرب ويتبع هذا بالتالي عداء ضد الإسلام، وهذا العداء جذوره من صنع المستشرقين[16]

فهذه جملة من الأسباب تدعو إلى تفنيد ورفض التيار الاستشراقي، ومن هذا المنطلق يتبين لنا أن إسهام المستشرقين إنما هو ضرر كله ولا خير فيه، وهو جناح من أجنحة المكر الثلاث ويستوي في ذلك مع الاستعمار والتنصير بل هو المغذي للاستعمار والتنصير على حد سواء[17]. فما جاء به المستشرقون لا يعد كونه سموما زرعوها في العلوم الاجتماعية والفكر والثقافة.

فالاستشراق رسالة استعمار وهو يساهم مساهمة فعالة في تشويه الإسلام، وتقديمه إلى الأجيال، وهو نتاج خليط مشوه من اليهودية والمسيحية والوثنية، الشيء الذي يؤدي إلى زعزعة أصالة الفكر الإسلامي وتعريضه إلى خطر الانقسام والانهزام أمام العلمانية، ونجاح عملية تغريب الشخصية الإسلامية عن دينها ولغتها وثقافتها.[18]

والعجيب أننا لا نزال نجهل أو نتجاهل آثار هذا الفكر الاستشراقي على الإسلام وأهله، وأن المخطط الموجه للإسلام، القصد منه إضعاف أهليته في الشرق للسيطرة الاقتصادية والسياسة والفكرية والتي تمكنوا منها في فترات زمنية متعددة[19] ويستمر هذا الحال إلى اليوم، فلابد من طريقة للتصدي لهذه الفئات التي لا تريد أن يقوم للإسلام قائمة.

اتخذ أصحاب هذا الرأي موقفا معارض من الحركة الاستشراقية، فهاجم روادها، طروحها المختلفة، وما توصلت إليه من دراسات ومفاهيم، وأشاروا في أكثر من حديث "إلى أن المستشرقين يتناولون الموضوعات المختلفة من منظور شخصي ومصلحي، ويتصرفون في فهم النصوص وترجمتها ونقلها إلى لغاتهم، حسب أمزجتهم وتصوراتهم الخاصة"[20].

ولعل ردود أفعال المثقفين العرب، لم تكن بحتة بل هي ناتجة عن تلك الإفرازات والآثار الذي حققها المستشرقون على مستوى الساحة الفكرية والثقافية وحتى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، هذا ما أثار حفيظة علمائنا العرب والمسلمين ومنهم:

مالك بن نبي الرافض والداعي إلى التحصين:

شكل موضوع الاستشراق هاجسا لدى الباحثين والنقاد العرب إلى درجة أنهم أولوه عناية كبيرة وذلك الاستشراق من أهم المسائل التي تواجه عالمنا العربي الإسلامي، ولعلاقته بالدوائر الاستعمارية وبالتبشير، وكذا بالتوجهات الحضارية ككل وهنا يتحدد لنا موقف **العلامة مالك بن نبي** فموقفه بني على الرفض المطلق لجهود المستشرقين والتقليل من الجوانب الحسنة التي أسهموا بها، و"هذا الأمر لا يرضي الطرف الآخر الذي يثني على جهود المستشرقين وينسب إليهم الفضل في التعرف على التراث أولا ثم خدمته ثانيا."[21]

وموقف مالك بن نبي معاد للاستشراق وكل ما يصدر عنه ويأتي به فهو ينسب إلى المستشرقين مصالحا وأهداف ونوايا خبيثة مشبوهة معادية للعرب والمسلمين، فأنتج لنا كتابه **"إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث"** موضحا فيه ماهية الاستشراق وأثر هذه الظاهرة على الفكر الإسلامي، فقام أولا قبل الغور في إبداء رأيه بتحديد المصطلح "المستشرقين" الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية علينا أن نصف أسماءهم في شبه "ما يسمى طبقات على صنفين أولا من حيث الزمن طبقة القدماء مثل جربر دورياك، والقديس توماس الأكويني وطبقة المحدثين مثل: كان درقو، وجولد تسهير، ومن حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتابتهم فهناك طبقة المادحين للحضارة وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها"[22].

هكذا قسم مالك بن نبي المستشرقين من حيث الزمن ومن حيث الاتجاه وقد استطاع أحمد سمايلوفتش أن يستقرئ لنا نتائج آراء العرب على ظاهرة الاستشراق، بحيث "يستطيع الباحث بعد تفحص دقيق لهذه الآراء التي نسجها علماء العرب أن يستخلص النتائج الآتية: أن الاستشراق في المفهوم العلمي علم يفهم في رحابه الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وحضارته، ولهم طبقات من حيث الزمن، (القدماء والمحدثون) ومن حيث الاتجاه العام نحو الإسلام (المؤيدون والمنتقدون) والدراسة الشاملة للموضوع لابد أن تقوم على هذا الأساس والترتيب كما يرى مالك بن نبي"[23].

ومن هذا المنطلق تأتي دراسة ورؤية مالك بن نبي للاستشراق "فمن الواضح أن المستشرقين القدماء أثروا ولا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار في العالم الغربي، دون أبحاث تأثر على أفكارنا"[24] فهو يرى أن الاهتمام بدراسة الإنتاج الاستشراقي بكلا نوعيه كان شرا على المجتمع الإسلامي، لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة الحرمان سواء في صورة المديح، والإطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر، وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا أو في صورة التنفيذ والإقلال من شأننا بحيث صرنا حماة... عن مجتمع منهار مجتمع ما بعد الموحدين بينما كان من واجبنا أن نقف منه، عن بصيرة طبعا ولكن دون هوادة لا نراعي في ذلك سوى مراعاة الحقيقة

الإسلامية غير المستسلمة لأي ظرف في التاريخ دون أن نسلم لغيرنا حق الدفاع عنها. أو نحن نصرح بأننا نجد على كل وجه جانبا إيجابيا في هذا الاستشراق فإننا لا نجده في صورة المديح بل صورة التنفيذ فعندما يعلن الاستشراق أنه لا نصيب للعرب في تشييد صرح العلوم[25].

فموقف **مالك بن نبي** موقف رافض، فقد أنكر على الاستشراق تأثيراته القوية على الفكر في المجتمعات الإسلامية، وهو يسعى إلى بلورة فكر إسلامي أصيل يرد على آراء المستشرقين، وعلاج مشاكل مجتمعة، وبين لنا أن إنتاج المستشرقين وأعمالهم سواء كان خيرا أم شرا فهي ستبقى شرا على العرب والمسلمين ووضح لنا بالاستشهاد بكتاب **زيغريد هونكا" شمس العرب تسطع على الغرب** هذا الكتاب فيه مدح وتمجيد للحضارة الإسلامية، فقد أعجبت الجماهير العربية المسلمة بهذه الكاتبة، التي مجدت الحضارة الإسلامية العربية، وإن لها الفضل في إرساء الحجر الأساس للحضارة الغربية ونهضتها إلا أنه يكشف عن جانب آخر "إمكانية استغلال هذه الحساسية لإلفات تلك الجماهير العربية عن حاضرها"[26] فهي بهذا تلهي العالم العربي الإسلامي بذكر وتمجيد ماضيه لإغفاله عما يحدث ويجري الآن، فهو يرى أن المدح والتمجيد يستخدمهما المستشرقون لتخدير أحاسيسنا ومشاعر المجتمع الإسلامي، لذا يجب إغفال هذه الفئة من المستشرقين، وعدم إعطائها الاهتمام، في وقت نحن فيه بحاجة إلى التركيز على قضايا تعصف بالأمة من كل جانب في مجالات شتى وفي المجالين الفكري والثقافي خاصة[27]. بناء على ذلك وجب مواجهة هذا الغزو الفكري الذي دخل علينا آمنا واخترق البلاد بلا قعقعة سلاح وتقدم بصمت وبخطى ثابتة.

ونجد في موضع آخر يقول "أن بعض هؤلاء المشارقة المتتلمذين للمستشرقين، يخفون عملهم التخريبي ضد الإسلام بإيعاز واضح من أوساط استعمارية تحت رداء تقديمه جوفاء، تحاول سلب الإسلام من كل قيمه الحضارية بل تنسب له حالة التخلف الراهنة في العالم الإسلامي"[28].

فهو يرى أن الغزو الفكري الذي أصاب المسلمين في دينهم وفكرهم وحولهم إلى مسخ آدمية تحمل معنى الإسلام بالاسم وهم دعاة التغريب، أو ما يسمى بأبناء وعملاء الغرب فقد تتلمذوا على أيدي بعض المستشرقين فهم يرون فيهم المثال في المنهجية،

والعلم والدقة والبحث وغيره من النعوت المادحة، فقد أثر الاستشراق على عقول الدراسيين والباحثين العرب، لأنهم وجهوا في معاهد وجامعات الغرب فاتخذوا منها الأدب الغربي أساسا للبحث والتماس أسلوب النقد من نظريات الأدب الأوربي.

يرى أن شبابنا ضائع يسير وفق منهج الغرب لأن الشباب هو أساس المجتمع يقول " لأنها في الوقت الذي نلاحظها من جانب الشباب الذي تحقن له حقنة من سيروم الكلاب المسعورة، فينطلق يلهث في مجال الديماغوجية نراها تستمر في الناحية الأخرى حيث يصب نفس الأخصائيون في روح الجناح الآخر عقار النوم والسلوى من خالص إنتاج المستشرقين"[29] فقد أثر المستشرقون على نواة المجتمع وعمود الأمة الإسلامية وهم الشباب وفعلا هذا ما نلحظه في وقتنا الحالي.

وهناك محاولات التي توجه الفكر الإسلامي في العصر الحديث لإخراجه من أصالته وقيمه في عدة تحديات أهمها "الحيلولة دون استئناف المسلمين حياتهم على أساس الإسلام ومحاولة إسقاط قيم جذرية ودعائم قائمة وفرائض أساسية كالجهاد والالتزام الأخلاقي، ومحاولة تصوير المجتمع الإسلامي الحديث والفكر الإسلامي الحديث وكأنهما مستقلين عن روابطهما التاريخية والثقافية[30].

ومن هنا يتضح لنا مدى خطر الاستشراق في طرح أفكاره ونظرياته وفلسفاته المتعددة داخل العالم الإسلامي ولا ريب أن الاستشراق يعمل على إيجاد حصيلة واسعة من مفاهيم الإسلام، بدأها أولا بترجمة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فهم يدرسون قضايا الإسلام لغة وتاريخا وشريعة وتراثا بروح علمية تقوم إما على سوء الفهم أو سوء النية، فقد كان الفكر العربي الإسلامي في كفاح دائم للتحرر من هيمنة الثقافات الأجنبية والسيطرة عليه وبالتالي ربما وجب علينا أن نستخلص من العرض نتيجة تتخذ موقفا من إنتاج المستشرقين فيقول مالك بن نبي "وبالتالي ربما وجب علينا أن نستخلص من الغرض نتيجة تتخذ موقفا من إنتاج المستشرقين فيقول مالك" أولا أنه إنتاج لا يجوز نكران قيمته العلمية بل نراه أحيانا يستحق كل التقدير بما خلفه سيدو وجوستاف لوبون أداسين بلاتيوس بالإضافة إلى طابعه العلمي بطابع أخلاقي ممتاز، ولا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف شهود نعرف قيمتهم كعلماء، ولكننا نغفل جانبا أساسا في الموضوع إذا لم نأخذ في حسابنا

أن كل ما ينتجه العقل في هذا القرن العشرين الخاضع لمقياس الفعالية لا يخلو من بعد علمي قد شغل في ميدان السياسة حيث تصبح الأفكار ما سما منها وما كان تافها منها، مسخرة لتكون وسائل افتضاض الضمائر والعقول"[31] فمالك بن نبي يعتبر ظاهرة فريدة في الفكر العربي الإسلامي وأكثر ما اهتم به هو الصراع الفكري في العالم العربي الإسلامي المعاصر، فواجه الاستشراق بكل ما أوتي من قوة فكرية وحدة نظر وبحث ونقد.

النقد الخطابي للاستشراق عند إدوارد سعيد:

إن موضوع الاستشراق لا يزال من المواضيع التي تستحق الدراسة تلو الأخرى لأنه يتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل، فقد تغلغل مصطلح الاستشراق في ذهنية الثقافة العربية، وغزا قاموس الحياة العربية وكيانها وهذا ما دفع الكثير من المفكرين والباحثين العرب، للقيام بعدة دراسات حول هذه الظاهرة وتعريفها والبحث عن سبيل المواجهة والتخلص منها أهم هؤلاء الدارسين العرب "**المفكر العربي المسيحي الفلسفي إدوارد سعيد"** من خلال كتابه **الاستشراق، ا (لسلطة، المعرفة، الإنشاء)** وقد قام بدور هام وفعال في عملية الإنشاء، وذلك من أجل التعرف على الآخر في إطار لغوي ذو لمعة، وجاذبية ناهيك عن السياسة الخفية والسلطة، وتضارب المصالح والغايات التي يصبو إليها الطامعون.

ولكلمة الاستشراق مدلولات كثيرة "مصطلح أو مفهوم عام يطلق عادة على اتجاه فكري يعني بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة"[32] ويذهب آخر إلى أن الاستشراق هو اهتمام علماء الغرب بعلوم المسلمين وتاريخهم، ولغاتهم وآدابهم وعلومهم وعاداتهم ومعتقداتهم وأساطيرهم.

أما الذين يحاولون "تحديد نشأة الاستشراق تحديدا علميا قائما على حدث علمي فيرجعون نشأة الاستشراق إلى سنة **(712 هـ-1322م)** حينما عقد مؤتمر "فينا" **الكنيسي** ونادى بإنشاء كراسي للغات العربية واليونانية والسريالية، في الجامعات الأربع الرئيسية في أوربا وهي باريس-أكسفورد- بولونيا وسلامنكا، وقد رأى هذا الرأي

كثير من الذين كتبوا عن الاستشراق ويبدو هذا أقرب إلى الصواب، لأنه يعطي تاريخا بعينه وحادثة علمية بالزمان، والمكان والنتائج"[33].

واختلفت الآراء حول التحديد الحقيقي لنشأة الاستشراق إلا أن الأغلبية اتفقت على أن نشأته كانت بعد صدور قرار مجمع فينا الكنيسي 1312م ومن هنا تأسست منظومة الاستشراق وأصبحت كراسي وجامعات ومدارس وأوضحت أهدافها وحدد مجالاتها.

وعلى حد قول **"إدوارد سعيد"** "أن ما نسميه الاستشراق هو طريق للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبينة على منزلة الشرق الخاصة في التجربة الأوربية الغربية، فالشرق ليس لصيقا بأوربا وحسب بل إنه كذلك موضع أعظم مستعمراتها وأقدمها ومصدر حضارتها وتمدنها"[34].

فالاستشراق لدى إدوارد سعيد مرتبط بالشرق لأنه هو الأضعف والقوة تكمن للغرب وقد استطاع استباحة الآخر-الشرق- بأرضه وثرواته بل وقدرته على اكتشافه من الداخل "ثقافة ووعيا وذاتا".

وبناء على ما قيل فالاستشراق، هو أكثر المصطلحات تفصيلا كونه يتضمن الموقف التنفيذي السلطوي للاستعمار أوربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بيد أن الكتب لا تزال تكتب والمؤتمرات تعقد ومحركها الرئيسي هو الشرق فالاستشراق بمعناه الصحيح في رأي إدوارد "أسلوب من الفكر القائم على تميز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب"[35] ظاهرة ينفرد بها الغرب في دراسته لأحوال الشرق ويحدد المعرفة الاستشراقية بما يقوله الغرب عن شؤون الشرق، والشرق سابقا كان يضم الدول العربية والإسلامية وجنوب شرق آسيا والصين واليابان.

وبإيجاز فالاستشراق "كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه، فإن التكلم عن الاستشراق هو التحدث عن مشروع ثقافي بريطاني وفرنسي، ينبثق من علاقة تقارب خاصة قامت بين بريطانيا وفرنسا والشرق"[36] فهو يشير إلى أن الاستشراق هو وسيلة من وسائل سيطرة الغرب علينا وثمرة من ثمرات التآمر الغربي علينا.

ويؤكد "أن الاستشراق يستطيع أيضا أن يعبر عن قوة الغرب، وضعف الشرق كما يراها الغرب وهذه القوة وهذا الضعف قائمان في صميم الاستشراق كما يقومان في أية نظرة تقسم العالم إلى أجزاء كبيرة عامة، وإلى ذوات تتعايش في حالة من التوتر يولده ما يعتقد أنه فرق جذري"[37] ومن هنا فالاستشراق لا يمكن حصره في تعريف بأنه ظاهرة تاريخية، ومنهج في الفكر، ومشكلة معاصرة، واقع مادي، فقد تشبعت أهواؤه وميوله واتجاهاته في عالمنا الشرقي.

وفي هذا المقام نجد محمد الدعمي يدعم هذه الفكرة ويستشهد بكتاب إدوارد سعيد " إن الاستشراق يعكس طرائق التنازل الغربي للثقافة العربية الاسلامية ماضيا وحاضرا، فقد تحول إلى شيء من الحمى بعد نشر وتعريب كتاب الاستشراق فهو مؤلف نقدي يعتمد على الخط الجدلي والأدوات الأكاديمية المناسبة لمباشرة آليات التفكير الغربي بالشرق لذا استقبل موضوع الاستشراق من قبل العقل العربي والمسلم المثقف بالكثير من الاهتمام الذي طفت آثاره على سطح وسائل الإعلام بأنواعها زيادة على تبلورها في عدد من المؤلفات التي حاولت نقد الاستشراق بالطريقة التي اعتمدها إدوارد سعيد"[38] فقسم إدوارد هذا البحث الأكاديمي في مجالات ثقافية غربية وعربية لذا تم استحضار أهم المنطلقات الفكرية العربية الإسلامية المعاصرة على سبيل البرهنة، وعلى أن هذا الماضي إنما هو كينونة حيوية ومولد فاعل في صناعة التاريخ المعاصر واستشراق المستقبل لدى العرب والمسلمين.

وأن ما يهم في الاستشراق "هو المجموعة العامة من الأفكار التي تطغى على كتلة المادة ومن يستطيع أن ينكر أنها كانت أفكار مستبقة بمذاهب التفوق الأوربي"[39] إذن هو حقيقة ثقافية وسياسية.

ربط إدوارد سعيد دراسات الاستشراق الغربية المتخصصة بدراسة ثقافة المستشرقين، إضافة إلى ربطها بالمجتمعات الإمبريالية، مما جعل أعمال الاستشراق أعمالا سياسية في لبها وأكد على التغير المستمر والماكر من دول مراكز أوربا اتجاه الشعوب العربية الإسلامية.

فاستطاع أن يقدم "استيعابا منهجيا محكما ومدعوما بمعرفته الواسعة بالتيارات النقدية لأدبيات ما بعد الحداثة واللغات الأجنبية وأيضا الإنتاج المعرفي

الأدبي والتاريخي الغربي، لكن لابد من الأخذ بعين الاعتبار أهمية تأثير الفيلسوف الفرنسي ميشل فوكو والمنظر الماركسي أنطونيو غرامس"[40].

ولذا يرى مؤيدو إدوارد في كتابه الاستشراق، كان كحجر أساس في إنشاء حركة ما بعد الاستعمار، ساعدت الباحثين غير الغربيين على الاستفادة من المزاج السياسي في خلق حياة منهجية جديدة ودراسات مهنية ناجحة دون الاعتماد على نتائج الأبحاث الغربية لهذا اعتبر إدوارد مؤسس نظرية ما بعد الاستعمار.

قسم إدوارد سعيد كتابه إلى ثلاثة فصول طويلة يرسم الأول "مجال الاستشراق" دائرة كبيرة حول أبعاد الموضوع كلها في إطار معطيات الزمن والتجربة التاريخية أما الفصل الثاني "البنى الاستشراقية والاستبناءات".

أما الفصل الثالث هو "الاستشراق الآن" ويقر إدوارد سعيد أن معظم ما في هذه الدراسة من استعمار شخصي لينبثق من وعي لكونه شرقي، نشأ طفلا في مستعمرتين بريطانيتين وهي فلسطين ومصر[41] وهذا يعني أنه لم ينفصل الاستشراق عن مكانه في ذهن إدوارد سعيد على أنه مستعمر ولأنه ذاق ويلات الاضطهاد الاستعماري في مصر على يد إسرائيل وهو صغير وشابا على يد بريطانيا وهو في مصر، والتحرر منه يستدعي مواجهة الثقافة التي خلقت الاهتمام الأوربي ثم الأمريكي بالشرق على نحو سياسي أدى إلى استعماره.

وإن أحد أغراض كتاب إدوارد سعيد هو تمثيل الاستشراق وتوضحيه وتحليله والتأمل فيه من حيث هو ممارسة للقوة الثقافية ويتضح هذا في قوله "إذن هو معرفة بالشرق يقع الشرقي في قاعات التدريس في محكمة السجن أو في دليل هو جزء لأعراض التحليل المدقق والدراسة والمحاكمة والتأديب والحكم"[42].

فالاستشراق له منحى سياسي يتخفى في ثوب ثقافي فهو في ذهن إدوارد سعيد مشاعر واجب التحرر منها لذا يجب مواجهة الغزو الفكري الذي خلقه الاهتمام الأوربي بالشرقي على نحو سياسي أدى إلى استعماره فهو كامن خفي تمثل في الثقافة الغربية وظاهر مؤثر من خلال الاستعمار.

ونجد **محمد الفيوم** يوافق إدوارد سعيد في رؤيته إلى الظاهرة الاستشراقية الغربية "إنه لم يكن إدوارد سعيد مبالغا حين كشف الاستشراق ووضح نواياه

وأعماله التي تعاملت مع الشرق"[43] ومن ثم فإن فعل الاستشراق أيقظ حمية مفكرين ومثقفين شرقيين كثر، للرد على الاستشراق فهو رد فعل دفاعي إرادي لهذه الظاهرة.

لقت أطروحة إدوارد سعيد استحسانا، مثلما تعرضت لهجوم عنيف من أكثر من موقع ومنطلق ولأكثر من سبب أشدها كان من المستشرق برنارد لويس Bernald Louis الذي أشار إلى وجود مغالطة منهجية لا يمكن تبريرها في أطروحة إدوارد سعيد[44] وواقع الاستشراق من حيث منظوره التاريخي "هو أسلوب غربي لسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه وبأن الاستشراق قد شكل الحضارة الشرقية في كوكبة من الأفكار الشرقية بالاضطهاد، والأمة ا لشرقية والصورة الشرقية وحواسه"[45] فإدوارد سعيد نقد ورفض الاستشراق من المنابع نفسها التي امدت المستشرقين بأدواتهم الابستمولوجية.

وبناء على ما سبق يتضح لنا أن الاستشراق اختبأ وراء وجه جميل بريء لكن داخله لطالما أضمر حقد الكراهية للإسلام والعرب محاولا إبراز الفوقية والسيطرة والقوة، والأنا الإمبراطورية على حساب الشرق الذي وصفه بالتخلف، فقد حاول إدوارد سعيد أن يظهر الاستشراق في حلته الخبيثة المتنكرة في ثوب المعرفة من أجل توسع الهيمنة الغربية على الشرق.

كما لا ننسى العلم مصطفى صادق الرافعي الذي قدم في كتابه "تاريخ آداب العرب" مقدمة هامة حول منهجه في كتابه وخطته فيه "تعرض للمستشرقين ضاربا مناهجهم عرض الحائط، خاضعا لمنهجه الخاص،. فأغلب المستشرقين لا يعرفون كثيرا عن أسرار العربية وما فيها من إيحاءات، وإن كتبهم عنها مفهرسات عامة وهي لا تسمن ولا تغني من جوع لأنهم يترجمون في كثير من الأحيان عن بيئتهم وأحوالهم، ولا يتعمقون هذا التعمق الذي يمتاز به الكتاب العرب أينما كانوا وأينما حلوا"[46] لقد دافع مصطفى صادق الرافعي عن الأدب واللغة وواجه الاستشراق وتعلمه وعلمه فهو أحد أعلام النهضة العربية الحديثة.

ويرى كثير من الباحثين قصور المستشرقين في الفهم الهام، بصرف النظر عن وجهة النظر الغربية المفروضة إلى اختلاف المزاج النفسي والثقافي واختلاف البيئة

وجذور الثقافة الإسلامية للتوحيد والأصول الأوربية للوثنية اليونانية والمسحية العربية يضاف إلى هذا الغاية والهوى.

مراجع البحث وإحالاته:

1 - محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، (دط) ، (د ت) ، ص 12.

2 - المرجع نفسه، ص 129.

3 - علي بن إبراهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين"استقراء المواقف سلسلة 2، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، (دط) ، 1993، ص 20.

4 -محمد الدعمي، الاستشراق الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2006، ص28.

5 - سورة الرعد، الآية 11.

6 - علي بن إبراهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين، ص22.

7 - ينظر: المرجع نفسه، ص 35.

8 - محمد عبد المنعم خفاجي، خلود الإسلام، دار الشهاب، باتنة، 1986، ص 44-45

9 - ينظر: عبد الرحمن خرشي، فلسفة الاستشراق وأثرها في الصراع الحضاري، دار هومة، الجزائر، 2013، ص105.

10 - محمد الدعمي، الاستشراق"الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي"، ص 214.

11 - عبد الرحمن خرشي، فلسفة الاستشراق وأثرها في الصرع الحضاري، ص 106.

12 - مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم، دار السلام، دار الوراق، مصر، ط (1) ، 1998، ص03-04.

13 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير، الاستشراق، الاستعمار) سلسلة2، دار القلم، دمشق، ط8، 2000، ، ص53.

14 - المرجع نفسه، ص 759.

15 - ينظر: فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، القرون الإسلامية الأولى، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1998، ص 12.

16 - ينظر علي بن إبراهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين، ص 23-24.

17 - ينظر المرجع نفسه، ص 25.

18 - ينظر: محمد إبراهيم الفيومي، الاستشراق رسالة استعمار "تطور الصراع الغربي مع الإسلام"، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993، ص. 108

19 - ينظر: عبد القهار داوود الله العاني، كتاب الاستشراق والدراسات الإسلامية، دار الفرقان، عمان، ط1، 2001، ص 12.

20 - منذر معاليقي، الاستشراق في الميزان، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، عمان، ط1، 1997، ص66.

21 - علي بن إبراهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين، إستقراء المواقف، ص36.

22 - -مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الرشاد، بيروت، ط1، 1969، ص 5.

23 - أحمد سيما يلوفيس، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص 29.

24 - مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص25.

25 - مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص25.

26 - المصدر نفسه، ص 17.

27 - ينظر: علي بن إبراهيم النملة، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقون، ص25.

28 -مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص 23.

29 -مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص 47.

30 - أنور الجندي، مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام"الرد على فرويد وماركس ودوركايم، دار الكتب، الجزائر، د ط، د ت، ص 13.

31 -مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص 42.

32 - سعد بوفلاقة، الاسستشراق والمستشرقون بين الإنصاف والتجني، مجلة بونة للبحوث والدراسات التراثية والأدبية واللغوية، عدد03، 2005، ص18.

33 - - سعد بوفلاقة، الاسستشراق والمستشرقون بين الإنصاف والتجني، مجلة بونة للبحوث والدراسات التراثية والأدبية واللغوية، ص 122.

34 - إدوارد سعيد، الاستشراق "المعرفة –السلطة-الإنشاء-تر كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1981، ص 37.

35 - المرجع نفسه، ص 38.

36 - إدوار سعيد، الاستشراق، "المعرفة والسلطة، الإنشاء، ص 39.

37 - المرجع نفسه ص 37.

38 - محمد الدعمي، الاستشراق الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي، ص 7.

39 -إدوارد سعيد، الاستشراق-المعرفة-السلطة، الإنشاء، ص 47.

40 علي عبد اللطيف أحميدة، ما بعد الاستشراق"مراجعات نقدية في التاريخ الاجتماعي والثقافي الحضاري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009، ص 11.

41 - ينظر: ادوارد سعيد، الاستشراق، ص58.

42 - المرجع نفسه، ص 72.

43 - محمد إبراهيم الفيومي، الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي، سلسلة 3، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1994، ص 10.

44 -ينظر نديم الجندي، أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند إدوارد سعيد، حسن حنيفي عبد الله العروبي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2005، ص100.

45 -محمد إبراهيم الفيومي، الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي، ص 10.

46 -أحمد سما يلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص267.